

عن لقاء سريع مع غالينو



أحمد يمانى

قبل أن يصبح إدواردو خيرمان مارتيا هوغيس غالينو (1940-2015) أحد أهم الكتاب في العالم ورمز أميركا اللاتينية الكبير، كان قد تنقل بين مهن عدة، وهو ابن الطبقة الغنية وابن العائلة المتحذرة من أصول أوروبية. اشتغل عاملاً في مصنع، وكتباً على الآلة الكاتبة، وصزافاً في بنك وساعي بريد. وساهم هذا بشكل ما في جعل نصه حياً وقريباً. يكتب في السياسة كما يكتب في الأدب كما يكتب في كرة القدم، ويحلل البراعة نفسها، بلغته الرائقة الحادة ذاتها. غالينو اليساري العتيد والمناضل الشرس، غالينو الأديب الذي صنع لنفسه أسلوباً وطريقة في الكتابة، تعلم الحذف والاختصار من خوان رولفو الذي قال له ذات مرة: «تتم الكتابة بالطرف الآخر من قلم الرصاص، بالطرف الذي لديه المحاة».

في الحادية والثلاثين من عمره، كتب «الشرابين المفتوحة لأميركا اللاتينية» الشرابين النازفة للقارة، سيرة نهبيها وتاريخها المجهور. هذا الكتاب الذي استحال إلى أيقونة، قال غالينو منذ عام في معرض كتاب برازيليا إنه لن يكون قادراً على قراءته من جديد، فعندما كتبه لم يكن يعرف الكثير في السياسة والاقتصاد. كان كتاب «الشرابين المفتوحة لأميركا اللاتينية» من الكتب التي حرصت على حملها من مصر إلى إسبانيا حينما توجهت للحياة هناك. الكتاب المخيف والقلم لإدواردو غالينانو، المنقول إلى عشرات اللغات، قام بترجمته أحمد حسان وبشير السباعي بعد عشرين سنة من صدوره عام 1971. في عام 2009 سيقوم رئيس فنزويلا الراحل هوغو تشافيز بإهداء الكتاب إلى باراك أوباما في قمة الأميركيتين في رسالة واضحة بالطبع لم يفهمها أوباما في وقتها. ترجم أحمد حسان بعد ذلك قسماً من ثلثية «ذاكرة النار» بعنوان «الأصوات الأولى» وترجم الثلثية كاملة أسامة إسبر. أما صالح علماني فقد ترجم الكثير من العناوين أذكر منها: «كرة القدم في الشمس والظل»، و«بناء الأيام»، و«أفواه الزمن»، و«مرايا».

كان غالينانو إذن حاضراً ومقروءاً لدينا منذ ما يقرب من ربع قرن. هو الذي تنقل في المنافي بين إسبانيا والأرجنتين، لكنه، فيما نعلم، أبداً لم يزر أي بلد عربي. بل لم يكن يعرف أنه يُقرأ ويُترجم على نطاق ليس بالضييق أبداً في هذا العالم، الأقرب إليه باكثر مما كان يمكنه تخيله، وهو الذي كتب مقالته الشهيرة عن غزة عام 2012 كما كتب قبلها عن بغداد عام 2003، ويذكر في مقطع من المقالة غونتر غراس الذي رحل هو الآخر قبل ساعات من رحيل غالينانو: «لم أكن حتى قادراً على الاستماع إلى النصيحة الحنون من غونتر غراس. الكاتب الألماني، الذي يتفهم أن بوش في حاجة إلى إظهار شيء كبير جداً أمام والده، نصح بوش بالذهاب إلى طبيب نفسي بدلاً من قصف العراق».

ربما كان كذلك عام 2004، حينما زار إدواردو غالينانو البلدة الصغيرة التي كنت أقطن فيها مع زوجتي السابقة في شرق إسبانيا. كانوا قد رتبوا له محاضرة ولقاءً مفتوحاً مع الجمهور في الهواء الطلق، وكان الحضور كثيفاً والرجل متألماً يمضي من موضوع إلى آخر بكل سلاسة. حملت «الشرابين المفتوحة» معي وتوجهت صحبة زوجتي إلى المحاضرة، في نهاية اللقاء كنت أقدم رجلاً وأوخر أخرى وأشعر بخجل شديد من أن أتحدث إلى الرجل هكذا، وكانت هي تدفعني فعلياً في ظهري، حتى انتهزت الفرصة بعد توقيعه لأحد الأشخاص وأقتربت منه وفي يدي «الشرابين المفتوحة» في نسختها العربية. قلت له على الفور: إنني شاعر ومترجم مصري وقد ترجمت لك بعض القصص القصيرة وإن هذا الكتاب الذي أحمله في يدي هو النسخة العربية من «الشرابين المفتوحة لأميركا اللاتينية». بدا في تلك اللحظة أن الخجل كان يعتريه هو بل إن وجهه حمراً وارتبك نوعاً ما وقال لي: أنا مُترجم إلى العربية! لم أكن أعرف، لم أكن أعرف. قلت له إن اثنين من كبار المترجمين قاما بترجمة هذا الكتاب وهما في الآن ذاته بساريان مثلك ومن جيلك أيضاً. أخذ الرجل الكتاب، تطلع فيه لبرهة ثم أعاده لي وشكرني وتمنى لي حظاً سعيداً وانصرفت. ندمت بعد ذلك أنني لم أترك له النسخة العربية، لكنه بدوره ربما خجل أن يطلبها.

في لحظة رحيل غالينانو، يمكننا أن نتذكر قصصاً ومقاطع عديدة له. هذا واحدٌ منها:

عصافير ممنوعة

في عام 1976 في سجن يدعى «حرية»...

السجناء السياسيون لا يمكنهم الحديث دون إذن، ولا يستطيعون الصفي ولا الابتسام ولا الغناء ولا التمشي سريعاً ولا أن يُحيوا بعضهم بعضاً. كذلك لا يمكنهم الرسم ولا استلام رسوم لسنة حوامل ولا لزوجين ولا لفراشات ولا لنجوم ولا لعصافير.

ديداسكو بيريث، معلم في مدرسة، محكوم عليه بالسجن والتعذيب لاعتناقه «أفكاراً إيديولوجية». يستقبل يوم أحد زيارة ابنته ميلالي، ذات الخمسة الأعوام، الابنة تحضر له رسماً لعصافير.

الزقياء يمزقونه على باب السجن.

الأحد التالي تحضر له ميلالي رسماً لأشجار، الأشجار غير ممنوعة والرسم يعبر. يُثنى ديداسكو على عملها ويسألها عن الدوائر الصغيرة الملونة التي تظهر على قمم الأشجار، دوائر صغيرة كثيرة بين الأغصان، أهذه برتقالات؟ أية فاكهة تكون؟

الطفلة تشير له أن يصمت:

- «ششششش».

وفي السر تشرح له:

- «أبله، ألا ترى أنها أعين؟ أعين العصافير التي جلبتها لك في الخفاء».

من واحدة خانته، راح الملك يذبجهن جميعاً... العذراوات يفقدن عذريتهن ورؤوسهن واحدة بعد أخرى. شهزاد هي الوحيدة التي ظلت حية، تقايض كل يوم في الحياة بحكاية جديدة، وبينما هي تروي حكاياتها، تنتبه إلى أن السلطان يتأمل نحرها. إذا ما مل الملك، سوف يكون ضياعها». من ذلك الخوف من الموت ولدت براعة رواية القصص.

ويبدو أن غالينانو الساحر قد قرأ حاضراً نحن العرب من ماضينا، ففي واحدة من قصصه القصيرة جداً يُذكرنا بأبي العلاء المعري، أو «الشاعر المتنبي» كما يسميه، ويقول: «كان ورثة محمد منهمكين بالصراع في ما بينهم: سنة ضد شعبة، بغداد ضد القاهرة، والعالم الإسلامي يتجزأ ويتفتت إلى قطع صغيرة، يكُن بعضها العداء للبعض الآخر. كان عقد الجيش الإسلامي ينفرط في حروب ضد نفسه، بينما الصليبيون يتقدمون دون أية عوائق نحو بيت المقدس...»

شاعر عربي كتب بين العرب، وعن العرب، معلقاً على الوضع كما يلي: «اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا/ دين وآخر دُنن لا عقل له». وقال أيضاً: «يحطمان ربّ الزمان كاننا/ زجاج، ولكن لا يُعاند له سبْك». الشاعر صاحب هذا الكلام يُدعى أبا العلاء المعري. وقد مات عام 1057، في مدينة المعرة، قبل أربعين عاماً من اجتياحها وتدميرها حجراً حجراً على يد الصليبيين. ويقولون إن هذا الشاعر كان أعْمى!!!!

ولأن غالينانو وقف دوماً مع المضطهدين في كل مكان، لا بد له أن يكون نصيراً لفلسطين، ومن كتابه «أبناء الأيام»، هذا النص: «في هذا اليوم 14 أيار من عام 1948، ولدت دولة إسرائيل. بعد أيام قليلة من ذلك، طرد أكثر من ثمانمئة ألف فلسطيني، ودُمّر أكثر من خمسمئة قرية. هذه القرى، حيث كانت تنمو أشجار الزيتون والتين واللوز وغيرها من الأشجار المثمرة، تتبع مدفونة تحت الطرق السريعة، والمراكز التجارية، وحدائق الملاهي. إنها موتى بلا أسماء، فجنة الأسماء لدى السلطة الجديدة أعادت تعميد الخريطة. لم يبق إلا القليل من فلسطين. ومن أجل التهام الخريطة المتماذي تُستحضر صكوك ملكية، ممنوحة من التوراة بسخاء، وتُبرّر بمعاناة الشعب اليهودي طوال ألفي عام من الملاحقة. ملاحقة اليهود كانت، على الدوام، عادة أوروبية، ولكن الفلسطينيين هم من يدفعون ديون الآخرين».

يوم منحته «جامعة فيراكروت» المكسيكية جائزة دكتوراه الشرف، في شهر نيسان 2009، ألقى كلمة، وقرأ مقطعات من كتابه «مرايا» الذي كان يرويه يستند إلى قصص واقعية وحقيقية، وهو يرويها بأقل عدد ممكن من الكلمات. إنها حصيلة عملية إبداعية تعتمد شطب كلام كثير؛ فهو يقول: إنني أعمل وفق طريقة علمني إياها معلمي خوان رولفو، ويضيف أن رولفو أمسك في أحد الأيام قلم رصاص وقال له: «إنني أكتب بهذا، ولكنني أكتب أكثر بكثير بهذه»، ورفع ممحاة. وهذا بالفعل ما يفعله غالينانو، يمحو كثيراً إلى أن يجد الكلمات التي تولدها الضرورة. ولهذا فإن كتبه لا تعرض فكراً وحسب بل هي مكتوبة بلغة حسية فكرية، تجمع بين التأثير الانفعالي والعقلي. إنه ساحر الكلمات والأفكار، يؤكد ثقته بوصايا شهزاد، أم القصاصيين والروائيين والحكايات ومعلمتهم، فدرشها الأول الذي لا بد للكاتب من التقيد به: الملل ممنوع. لأن الملل يعني الموت، فشهر يار يتأمل عنقها، ويمكن له أن يشعر بالملل، وشعوره بالملل يعني موتها. هذا ما يقوله في كتابه «مرايا»: «من أجل الانتقام

عمله، مهما كان صغيراً وتافهاً، من دون أن يشير إليه عند اكتشافه، لأن نزاهته، وهي رأسماله الكبير، تمنعه من مجرد التفكير في الغش بالسكوت عن هناته. ويضحك غالينانو بكل سعادة حين يقرأ خبراً يقول إن كتابه «شرابين أميركا اللاتينية المفتوحة» هو أكثر الكتب تعرضاً للسرقة من مكتبات بوينس آيرس على الرغم من مرور أكثر من أربعين عاماً على صدوره. يضحك ويقول: «هذا يعني أنه الكتاب المطلوب أكثر من سواه بين من لا يملكون نقوداً لشراؤه». ما حققه غالينانو من نجاح وشهرة واعتراف به على المستوى العالمي لم يأت به فنون السحر. وإذا كان يحظى بكل هذا الاحترام كأحد أبرز الكتاب الأميركيين اللاتينيين، فإنما لأنه أثبت كفاءة أدبية حققها بالجهد والعمل الدؤوب، وعبر طريق شاق اكتنفته تضحيات كثيرة، ولكنها كانت تضحيات تستحق العناء، إذ تمكن من تشييد مسيرة صلبة متماسكة واصل تغذيتها بمواد جديدة حتى يومه الأخير. ولا يمكن إلا احترام غالينانو في حفاظه على مبادئه وعدم تخنكه لها رغم العواصف العاتية التي هبت على الفكر الاشتراكي في العقود الأخيرة، بل إنه يسخر على طريقته من بيروقراطيي الشيوعية الذين تحولوا إلى رجال أعمال، ويعلق ساخراً: «لهذا السبب كانوا قد درسوا «رأس المال»، من أجل أن يعيشوا على فائض قيمته».

في أعمال غالينانو، تتعايش الصحافة جنباً إلى جنب مع التاريخ

على السلطة أيضاً في انقلاب عام 1976. فانتقل إلى إسبانيا لينجو بحياته، وظل فيها حتى عام 1985، حيث رجع إلى الأوروغواي بعد الانتخابات الديمقراطية التي أجريت هناك. وعند عودته، وضع مرساة كبيرة أمام بيته في إشارة إلى أنه لن يغادر البلاد مهما جرى. وقد أقام حتى وفاته يوم الإثنين الماضي في مونتيفيديو، مدينة مولده.

كتب غالينانو خلال مسيرته في أجناس أدبية وكتابية متعددة، أبرزها الصحافة، دون نسيان أعماله التاريخية، والبحثية، وكذلك دخوله عالم الرواية بروايه الوحيدة هي: «الأيام التالية». وقد كانت أعماله على السدوام مثيرة للجدل حول الواقع الأميركي اللاتيني. فضلاً عن نتاجه الصحافي والأدبي، دفعه التزامه الاجتماعي السياسي إلى المشاركة في نشاطات عديدة، مثل عضويته في الهيئة الاستشارية لقناة «تلي سور» التلفزيونية، وانضمامه إلى الحملة المطالبة بسيادة واستقلال بويرتوريكو. كما أنه يعتبر أحد الشخصيات العالمية المناهضة للعولمة، إضافة إلى مشاركته في حملات التضامن ومعارضة التسلط والهيمنة والتخريب البيئي الذي تمارسه القوى العظمى وشركاتها.

في كتابه «شرابين أميركا اللاتينية المفتوحة» الصادر عام 1971، توصل إلى إبداعه الأوسع شعبية وتداولاً؛ وفيه يكشف بإسهاب وتفصيل تاريخ نهب القارة الأميركية، عبر أساليب قمع واضطهاد تشعّر لها الأبدان. والواقع أن غالينانو، منذ كتابة «أيام وليالي الحب والحرب» الذي صدر أول مرة في سبعينات القرن الماضي، وحتى «أبناء الأيام»، كتابه الأخير الصادر عام 2012، (صدر هذا العام كتاب جديد هو مختارات من كتبه السابقة بعنوان «نساء»)، كان يسعى طوال الوقت إلى تعزيز مصداقية كتابه الأهم «شرابين أميركا اللاتينية المفتوحة» الذي صار عملاً كلاسيكياً، والذي سدّ ثغرة كبيرة، ولولا لظل الفكر في تلك المنطقة من العالم يعاني من عدم اكتمال. ولهذا كان الهجوم الشرس طيلة عقود للليل من مكانة هذا الكتاب، وقد تجلت الهجمات خلال السنوات الثلاث الماضية بحملة تشهير منظمة ومحمومة شنها ثلاثة من أساطين الفكر الرجعي المحافظ، هم البارو بارغاس يوسا (ابن الروائي البيروفي المشهور، ولم يقصر الروائي نفسه في الترويج لحملة ابنه)، والكولومبي بلينيو أوليبيو ميندوتا (وكان لسنوات مديراً لمكتب وكالة الأنباء الكوبية «برنسا لاتينا» في بوغوتا)، والكوبي الأصل كارولس الكويرتو مونتائير الذي غادر كوبا وصرار يحمل الجنسييتين الإسبانية والأميركية. فالمعركة «الفكرية» التي افتعلوها ضد كتاب صار يعتبر انجياً جديداً لشعوب القارة المقهورة، بهدف الحط من قيمته العلمية والفكرية، لم تؤثر في انتشار الكتاب على الرغم من أن غالينانو أعلن في شهر أيار عام 2014 أنه ليس اقتصادياً متخصصاً، وأنه ألف الكتاب في شبابه، وقد تجاوز الزمن الكثير من معلوماته. يومها أصدر ثلاثي المترصدين بياناً انتصارياً عن «اعتراف» غالينانو نفسه، واستخدموا كلامه للتشهير به على الرغم من بؤس منطقتهم واضطرابهم إلى الاعتراف بمذلة بأن مبيعات كتاب غالينانو صارت بملايين النسخ وبمعظم لغات العالم. في ذلك الحين، أخذ عدد من أصدقاء غالينانو عليه تقديمه تلك الفرصة لخصومة كي ينقضوا عليه، ولكن الرجل النزيه لا يمكن له أن يتجاهل وجود خلل في

باسلوبه شديد

الإيجاز، يدين تعاسة عالم يزيد أكثر فاكتر من الهوة بين من يملكون ومن لا يملكون

”

والدراسة البحثية والقصة السردية، ولكنه أولاً وقبل كل شيء مؤرخ ملتزم بعصره وزمانه. وبأسلوبه شديد الإيجاز والتألق، يدين البؤس الأخلاقي والنفاق، وتعاسة عالم يزيد أكثر فاكتر من الهوة بين من يملكون ومن لا يملكون. ومعظم ما يروييه يستند إلى قصص واقعية وحقيقية، وهو يرويها بأقل عدد ممكن من الكلمات. إنها حصيلة عملية إبداعية تعتمد شطب كلام كثير؛ فهو يقول: إنني أعمل وفق طريقة علمني إياها معلمي خوان رولفو، ويضيف أن رولفو أمسك في أحد الأيام قلم رصاص وقال له: «إنني أكتب بهذا، ولكنني أكتب أكثر بكثير بهذه»، ورفع ممحاة. وهذا بالفعل ما يفعله غالينانو، يمحو كثيراً إلى أن يجد الكلمات التي تولدها الضرورة. ولهذا فإن كتبه لا تعرض فكراً وحسب بل هي مكتوبة بلغة حسية فكرية، تجمع بين التأثير الانفعالي والعقلي. إنه ساحر الكلمات والأفكار، يؤكد ثقته بوصايا شهزاد، أم القصاصيين والروائيين والحكايات ومعلمتهم، فدرشها الأول الذي لا بد للكاتب من التقيد به: الملل ممنوع. لأن الملل يعني الموت، فشهر يار يتأمل عنقها، ويمكن له أن يشعر بالملل، وشعوره بالملل يعني موتها. هذا ما يقوله في كتابه «مرايا»: «من أجل الانتقام